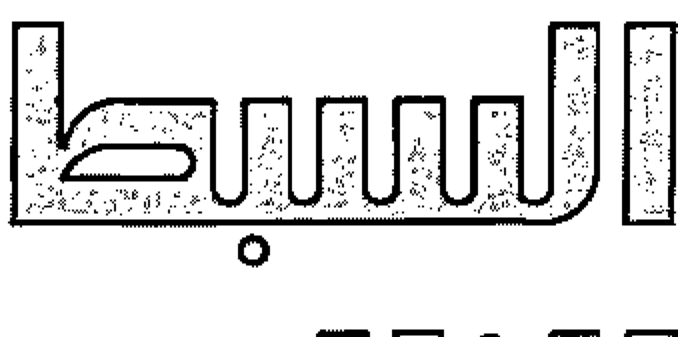
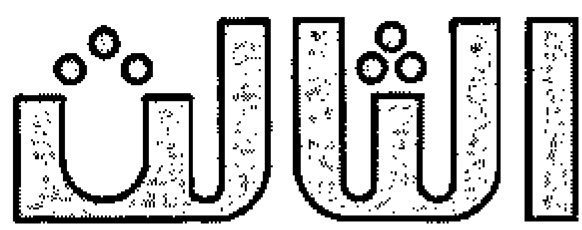
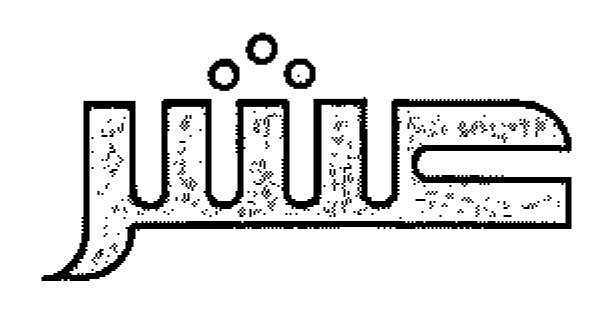






د. صالح احمد العلي

تعتبر نظرية نقاوة العرق اليوم من النظريات البالية بعد ان اثبتت الدراسات العلمية الدقيقة والمتعددة عدم صحتها ، ولم يبق ممن يؤمن بها الا عـدد ضئيل مـن المتعجرين ذوي المصالح علما بانهم لا يلقون في اعتقادهم تأييدا ولا يحضون باي تقدير .

غير ان اسرائيل بالرغم من رفض العلم لهذه النظرية فانها تعتبرها عقيدة اساسية ، وتعتبر قيام دولتهـا قائما على اساس هذه الفكريـة . وقد اثار موقفهـا اشمئزاز العالم واستهجانهم ، فاصدرت هيئة الامـم المتحدة، وهي اعلى مؤسسة عالمية، قرارها بان اسرائيل دولة عنصرية ، وان هذا مثار استهجان العالم .

ان هذا القرار الخطير صادر من اعلى هيئة دولية ومستند على اسس علمية ومنبعث من الاخطـار التي تنجم في العالم من تبني هذا المبدا . غير انه بالرغـم من ذلك فان اسرائيل للتعنت للقرار ، وظلت متمسكة بعقيدتها العنصرية دون حياء او خجل . وقد تناست اسرائيل ان هذه العقيدة مناقضـة لكل الدراسـات العلمية .

وقد ظهرت حديثا دراسات تثبت ان اليهود ليسوا عنصرا نقي الدم، ولكنهم خليط من دماء متعددة . ومن ابرز هذه الدراسات كتاب صدر في الصيـف الماضي ، مؤلفه الكاتب البريطاني اليهودي المشهور ارثر كستلر، بين فيه ان اكبر مجموعة من اليهود هي التي تسكن في روسيا واوربا الشرقية ومن هاجر منهم الى الولايـات المتحدة ، وان هؤلاء اليهود اصلهم من الخـزر الذين كانوا يعيشون في العصور الوسطى في جنوب روسيا ، وليست لهم علاقة عرقية بالاسرائيليين الذين كونـوا دولة في فلسطين. لذلك فان القول بان اليهود خالصوا الدم وانهم يتكونون من اثنى عشرة قبيلة (سبطا) هو قول غير صحيح ، لان اغلبية يهود العصر الحاضر هم من الخزر في الاصل، وقد اورد ادلة تاريخية وحضارية وانثربولوجية كثيرة لترضيح ودعم رايه ؛ وبذلك يكون يهود هؤلاء الخزر القبيلة الثالثة عشر والامم اذا كان اليهود اثنا عشر قبيلة كما يدعون ؛ ومن هنا جعـل عنوان كتابه The Thirteen Tribe

ومؤلف الكتاب «ارثر كستلر» يهـودي من اواسط اوربا ، فابوه مجري ، وامه نمسارية ، وقد اعتنـق المعتقدات اليسارية، وحارب مع الشيوعيين في اسبانيا، ثم لجا الى فرنسا حيث سجن بعد الاحتلال الالمـاني لفرنسـا ، ثم فر من السـجن ولجا الى انكلترة ، وشارك المنشقين على روسيا ونفوذها على الاحـزاب الشـيوعية . ونشـر عددا كبيرا من الكتب الادبية والسياسية ؛ وتتميز كتبه بوضوح الفكرة وسـلاسة الاسلوب .

والكتاب الذي نلخصه اليوم صدر في انكلترة قبـل بضعة اشهر ، فلقي اقبالا عظيما عند الناس ، ولكنه اثار استياءا شديدا عند اليهود، فشنوا عليه حـملة عنيفة ، ونشروا البحوث والمقالات في التهجـم عليه ، وبالنظر لاهمية الكتاب فاننا نقدم تلخيصا وافيا له ، محاولين المحافظـة على روح الكتاب ولب محتواه ، ولا ريب في ان الكتاب عن اليهود ، وقد عرض بعض الاراء التي يمكن اعتبارها مبالغة في دورهم ، كما انه قدم تفاصيل كثيرة عن دولة اليهود في الخزر ، وقـد اثرنا ان يكون لها نفس التفصيل في ملخصنا لقلـة المعلومات عنها ، ولعلاقتها بتاريخ العرب والمسلمين في العصور الوسطى هذا فضلا عن ان معرفة العدو علـى حقيقته يساعد على وضع خطط انضج للعرب في كفاحهم الاساس ضد اسرائيل .

دولة الخزر

كانت تسيطر في اواخر القرن الثامن الميلادي على العالم المتحضر دول كبيرة يحكم كل منها ملك عظيم؛ فالدولة الاسلامية التي تمتد بلادها من اواسط اسيا حتى المحيط الاطلسي كان على راسها الخليفة هارون الرشيد ، وبالقرب منها كانت الدولة البيزنطية التي تحكم اقاليم ممتدة من اواسط اسيا الصغرى حتى ايطاليا، وعلى عرشها الامبراطورة ايرين، اما اوربا فكان يحكمها شارلمان الذي توج نفسه على الامبراطورية الرومانية الجديدة التي شملت فرنسا والمانيا وشمالي ايطاليا. وفي ذلك الوقت ايضا كانت المنطقة الواقعة بين القوقاس والفولغا في شرقي اوربا تحكمها دولة يهودية تعرف بامبراطورية الخزر • وقد قامت هذه الدولة ابان اوج قوتها بين القرن السابع والقرن العاشر الميلادي، بدور مهم في تشكيل مصائر اوربا في العصور الوسيطة ثم الحديثة • ومما يوضح مكانة هذه الدولة الخزرية في زمنها ما ذكره المؤرخ البيزنطي قسطنطين بور فيدرو جنيتس من ان الكتب التي كان يرسلها الامبراطور البيزنطي الى البابا او الى امبراطور اوربا الغربي كانت تختم بختم ذهب قيمته دينار ، اما الكتب التي كانت ترسل الى ملك الخزر فكانت قيمة ذهب ختمها ثلاثة دنانير • ويقول المؤرخ الانكليزي بيوري ان خانات الخزر لم تكن مرتبتها عند الاباطرة البيزنطيين اقل من مرتبة الامبراطور شارلمان •

دورهـــا

حكمت دولة الخزر البلاد الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين ، وبذلك كانت كالسد الذي حمى الدولة البيزنطية من غزوات البلغار والمجريين والبشنك ثم الفاكينك والروس ، كما صدت التقدم العربي الى الاقاليم الشمالية؛ ولعل دورهم هذا هو الذي حدا بقسطنطين الخامس (الخزري) الى التزوج من ابنة ملك الخزر •

ولما قام العرب بالفتوح وحطموا جيش الروم وازالوا الدولة الساسانية تقدم رتل من قواتهم نحو الاقاليم الشمالية واحرزوا انتصارات في مناطق ارمينية والقوقاز • غير ان العرب توقفوا ولم يتابعوا انتصاراتهم بسبب انشغالهم بالمشكلات الداخلية التي قامت في اواخر الخلافة الاموية

وقد اتاح توقف العرب الفرصة للخزر في تثبيت اقدامهم في شمال القوقاز ؛ ثم اتخذوا في سنة ٧٤٠ م (١٢٣هـ) اليهودية دينا رسميا لهم، علما بانهم لم يكونوا من نسل اسرائيل ولم يكن لليهودية سند سياسي انذاك • ولما سقطت دولتهم تشتتوا في القرم واوكرانا وهنغاريا وبولندة ولتوانيا، وبذلك كونوا فيما يعتقد المؤرخون ، اصول اليهود في هذه المناطق؛ اي ان يهود هذه المناطق هم من اصل خزري، وليسوا من اصل اسرائيلي •

موقف المؤرخين اليهود منها

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين وخاصة اليهود منهم ، على تجنب معالجة هذه الحقيقة ، وعملوا على عدم ابرازها للقراء؛ ويتجلى هذا واضحا فيما كتبه محرروا دائرة المعارف اليهودية في طبعة سنة ١٩٧٣، وكذلك فيما كتبه بولياك استاذ التاريخ اليهودي في العصور الوسطى؛ ومن المعلوم ان يهود شرقي اوربا يكونون اكبر كتلة من يهود العالم ؛ وان معظم يهود الولايات المتحدة هم من هذا الجنس ، وهم جميعا من اصل خزري، اي ان اصولهم ليست في فلسطين بل في الفولغا ، وبلادهم القديمة ليست كنعان بل القوقاز، وهم في دمهم اقرب الى الهون والمجر منهم الى الساميين •

من هم الخزر

كان الخزر في القرن الثالث الميلادي قبائل يعيشون في الخيام ، ثم اخذوا على ممر الايام في الاستقرار وانشاء القرى والمدن، وجعلوا بيوتهم مستديرة الشكل ، كالخيام • غير انهم لم يتركوا حياة التجول حتى بعد استقرارهم ، فيذكر الاصطخري في كلامه عن عاصمتهم الاتل «وليس لهذه المدينة قرى، الا ان مزارعهم مفترشة، يخرجون في الصيف في الزروع نحو عشرين فرسخا ليزرعوا ، ويجمعوا بعضه على النهر وبعضه على الصحارى، فينقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر»

استطاع الخزر ان يكونوا دولة بسطت سيطرتها على المنطقة التي بين القرم ونهر الفولغا ، وانشاوا حصونا قوية على طول حدودهم ، وسيطروا على بحر قزوين ، ومن هنا جاءت تسمية العرب له «بحر الخزر»•

وقد وصفهم ابن سعيد المغربي بان بشرتهم بيضاء ، وعيونهم زرق ، وشعرهم مسترسل اشقر ، وابدانهم ضخمة، وطبعهم بارد • وقال عنهم الاصطخري « والخزر لا يشبهون الاتراك ، وهم سود الشعر؛ وهم صنفان : صنف يسمون قرا خزر ، وهم سمر يضربون لشدة السمرة الى السواد ، كانهم صنف من الهند • وصنف بيض ظاهروا الحسن والجمال » •

اصلهم

لا نعلم على وجه التحقيق اصل الخزر ؛ ولكن الراجح انهم هاجروا من اواسط اسيا في حدود القرن الخامس الميلادي ، فهم اقرب الى الشعوب التركية ؛ ولعل اسمهم مشتق في الاصل من التركية «جز» اي «المتجول» او «البدوي» • ومن الطريف ان نذكر ان كلمة «هزر» عند القوزاق الروس وعند الهنغاريين معناها «الفرسان» وان كلمة «كتزر» تعني في اللغة الالمانية «يهودي» • ويذكر اليعقوبي ان الخزر هم من نسل يافث ، ابن نوح •

ورد ذكر الخزر في مؤلفات الكاتب السرياني زكريا الخطيب الذي ذكر انهم كانوا يقيمون في منطقة القوقاس • كما ذكرهم بريسكوس ، وهو مؤرخ بيزنطي زار بلاط اتيلا ، لتحدث عن الخزر البيض ومحاولة البيزنطيين ضمهم الى جانبهم دون نجاح • فلما سقطت دولة الهون قام الخزر ببعض الغزوات في منطقة القوقاز وخضعوا خلال ذلك لدولة البلغار ثم لدولة الترك التي حكمت تلك المناطق فترة من الزمن • وقد حاول الامبراطور البيزنطي هرقل محالفتهم في حربه مع الفرس •

اخطارهم

وقد ادرك الساسانيون خطر الخزر وهجماتهم على الاطراف الشمالية من دولتهم، فقاموا بتحصين باب الابواب ليسدوا الثغرة التي يتوغل منها الخزر • فلما قضى العرب على الدولة الساسانية وورثوا اراضيها ، اتخذوا موقف الهجوم فتقدموا من باب الابواب وتوغلوا في الشمال مستهدفين فتح بلنجر وهي اكبر المدن الخزرية القريبة من هذه الحدود ؛ واستطاع القائد العربي سلمان بن ربيعة الباهلي من فتح عدد كبير من المدن والقلاع ، ولكن قوة كبيرة من الخزر قابلته عند ابواب بلنجر ، وانتصرت عليه، وقتل مع حوالي اربعة الاف من جيش المسلمين في سنة ٣٠ هـ ، فتوقفت الفتوح الاسلامية موقتا في هذا الميدان ، ثم ان الخزر بعد ان امنوا بهذا الانتصار حدودهم الجنوبية ، توجهوا نحو الغرب فاخضعوا قبائل المجر والبلغار واوكرانيا والقرم ، وكونوا دولة ضمت هذه الشعوب •

ثم جدد العرب حملاتهم ، واحرزوا في بعض هذه الحملات نجاحا كبيرا رغم ان الخزر ابدوا مقاومة وجلدا، فقد استطاع مسلمة بن عبدالملك فتح بلنجر وسمندر، ولكنه عاد وانسحب منها • وفي سنة ١٢٠ هـ قاد مروان

بن محمد ، وكان واليا على الجزيرة وارمينية ، حملة استطاعت التوغل والسيطرة على تلك البلاد ، واشتبك مع خاقان الخزر فانتصر عليه ودمر جيشه واضطره الى الفرار الى الفولغا. غير ان مروان فاوض خاقان على الصلح فقبله خاقان واعلن اسلامه. ثم انسحب مروان ولم يتابع انتصاراته، وانشغل باخماد الثورات التي قامت في بلاد الشام والجزيرة وهددت مؤخرته . وكانت هذه اخر محاولة عربية للتوغل في تلك الارجاء ؛ وبذلك وقفت حدود الدولة الاسلامية عند جبال القفقاس ، كما توقفت في اوربا بعد معركة بواتييه عند حدود البرانس .

غير انه في هذه الفترة بدأت في الدولة البيزنطية اضطرابات داخلية جرت الخزر الى التدخل في شؤون هذه الدولة والاهتمام بها ؛ وبسبب حوادث ودسائس معقدة استطاعت دولة الخزر ان تفرض على القسطنطينية امبراطورا من صنائعها.

حضارتهم

وفي اعقاب هذه الفترة وصلتنا اوسع المعلومات عن احوال الخزر ، وذلك بفضل رسالة كتبها ابن فضلان الذي رافق بعثة ارسلها في سنة ٩٤٢ م (٣٠٩هـ) الخليفة المقتدر الى بلغار الفولغا، وغرضها الظاهري نشر الدين الاسلامي وبناء الجوامع ولكن ربما كان وراءها اغراض اخرى وهي محاولة عقد اتفاقيات دبلوماسية. ويتبين من وصف ابن فضلان ان البلغار، وكانوا انذاك يقيمون عند الفولغا ، كانوا متاخرين نسبيا في الحضارة ، فمعظمهم بدو يسكنون الخيام، ولهم بعض العادات الغريبة على المسلمين، ولكنهم كانوا يخافون الخزر الذين كانوا يقيمون في بيوت مبنية بالحجر؛ اى ان الخزر كانوا اكثر تقدما في الحضارة ، واقوى عسكريا .

تاثر الخزر بالفن الساساني ، ولكنهم انموه ونشروه في البلاد حتى وصل الى هنغاريا . وكانت عاصمتهم في البداية بلنجر ، فلما تعرضت لهجمات العرب نقلوا عاصمتهم الى الشمال ، ثم استقروا اخيرا في الاتل عند مصب الفولغا . وقد وصف عدد من الجغرافيين العرب مدينة الاتل، ومن اوضح وادق هذه الاوصاف ما ورد في كتاب المسالك والممالك للاصطخري حيث يقول: «واتل قطعتان : قطعة على غربي هذا النهر المسمى اتل ، وهي اكبرهما ، وقطعة على شرقيه . والملك يسكن في الغربي منها. وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ، ويحيط بها سور ، الا انه مفترش البناء . وابنيتهم خركامات لبود الا شيئا يسيرا بني من طين . ولهم اسواق وحمامات ، وفيها خلق ومن المسلمين، يقال انهم يزيدون على عشرة الاف مسلم . ولهم نحو ثلاثين مسجدا . وقصر الملك بعيد من شط النهر ، وقصره من آجر ، وليس لاحد بناء من آجر غيره، ولا يسوغ الملك لاحد ان يبني بالاجر . ولهذا السور ابواب اربعة :

منها الى ما يلي النهر ومنها الى ما يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة ، ملكهم يهودي يقال ان له من الحاشية نحو اربعة الاف رجل .٠٠

ويقول ايضا «وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين واهل الاوثان ، اذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء . ولا يصل اهل الحوائج الى الملك نفسه ، وانما يصل الى هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجري من الامر وينتهون اليه ، فيرد عليهم امره ويمضونه ».

الخزر يعتنقون اليهودية

ظاهرة فريدة

الخزر هم الشعب الوحيد من شعوب العالم ، الذين اعتنق ملوكهم اليهودية؛ ولعل هذا التهود راجع الى عوامل سياسية ؛ ذلك انهم اعتبروا انفسهم قوة سياسية ثالثة بجانب العرب والروم ؛ وقد كونوا مع كل من هاتين القوتين علاقات سياسية وتجارية ودبلوماسية ، ولكنهم لم يحاولوا الاندماج في اي منهما، وآثروا الاحتفاظ بكيانهم المستقل ليستطيعوا القيام بدورهم .

دوافعها

غير انهم لاحظوا ان دينهم الشاماني القديم ابتدائي لا يسمو الى مستوى الاسلام او المسيحية ، ولا يساعد على منح الحكام مكانة مرموقة كالتي يمنحها الدينان الاخيران لحكام رعاياه ؛ لذلك راو انه لا بد لهم من اتخاذ دين خاص يحفظ كيانهم ومكانتهم . فوقع اختيارهم على اليهودية ، وهي دين سماوي يعرفه المسلمون والنصارى ، ولا يؤدي اعتناقه الى الخضوع والانصهار في الاسلام او المسيحية . غير انهم لم يلتزموا بالتزمت اليهودي ولم يجبروا رعاياهم على اعتناق اليهودية او مراعاة قيودها المرهقة .

ولا بد ان هؤلاء الملوك كانوا قد عرفوا شيئا عن اليهودية واوضاعها وعقائدها ممن لجأ اليهم من المضطهدين على يد اباطرة البيزنطيين وخاصة ليو الثالث الذي اصدر مرسوما يقضي بتنصرهم وتعميدهم ؛ وقد استمرت هجرة اليهود اليهم حينما قام بعض الاباطرة فيما بعد بعصر من لم يتنصر من اليهود بالمعاصر . وقد جلب اليهود الفارون من الاضطهادات البيزنطية الى بلاد الخزر ثقافتهم وافكارهم وحروفهم الكتابية، حتى ان ابن النديم يقول : «والخزر تكتب بالعبرانية».

يقول المسعودي ان ملوك الخزر تهودوا في زمن هارون الرشيد . ويروي البكري ان ملك الخزر اراد ان يعتنق دينا سماويا ، فاوحى له يهودي ان يفحص هذه الاديان، فبدأ بالنصرانية ، وطلب رجلا منها، فلما حضر ساله اليهودي فاقر النصراني ان دين اليهود حق وانه يؤمن بنبوة موسى وبالتوراة . ثم طلب مسلما غير ان المسلم توفي قبل ان يصل الى حضرة الملك . وبذلك صفا الجو لليهودي. ولعل هذا الخبر اسطوري، ولكنه يعكس ان ملك الخزر اخذ من الدين اليهودي خطه العام وهو الايمان بالتوراة وبنبوة موسى ، دون التوغل في التفاصيل المفرقة .

اما الرواية اليهوديه عن تهود ملك الخزر فقد اوردها حسداي بن شبروت ، وهو طبيب الخليفة الاندلسي عبدالرحمن الناصر ومنظم ماليته ؛ فقد ذكر حسداي انه ارسل سفارة الى ملك الخزر يسأله عن سبب اعتناقه اليهودية ، فاجاب ملك الخزر بان الملك بولي، وهو احد اجداده، رأى في الحلم نورا ارشده الى اليهودية ووعده ببقاء ملكه الى الابد اذا تهود، فلما استيقظ بولي جمع ممثلي الاديان الثلاثة وناقشهم ثم اختار اليهودية دينا له .

واكد ملك الخزر في جوابه الى حسداي ان قومه لا ينتمون الى الساميين وانهم من نسل يافث وحفيده طغرمة الذي تحدر منه الترك كما تحدرت منه اقوام اخرى . وذكر فتوح اجداده ووصولهم الدانوب الذي حدث بعد تهود الملك بولان، ثم اعقب بولان ملك اهتم بالثقافه اليهودية ؛ اي ان التهود اتخذ مراحل متعاقبة بدات بطرد السحرة وانتهت بتثبيت الثقافة اليهودية . وذكر ملك الخزر في رسالته ايضا انه يقف بوجه تقدم الروس الذين لولاه لتوغلوا في تخريبهم ولوصلوا بغداد نفسها .

وقد تحدث بعض المؤلفين والرحالة اليهود عن الخزر وتهودهم ، كما ذكر بعضهم عددا من الخزريين تواجدوا في بغداد والاسكندرية والاندلس والقسطنطينية . واكدت المصادر ان هؤلاء اليهود ليسوا من اصل اسرائيلي وانهم من القرائين ، اي من الفرقة التي لا تؤمن بشروح التلمود .

انحطاط دولة الخزر

لم يحصل الخزر من تهودهم على مكانة مرموقة . بل بالعكس ان

اليهودية هي التي استفادت من قوتهم العسكرية والاقتصادية ؛ والواقع انه لم يرد ابان القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ذكر لحروب خاضها الخزر اللهم الامرتان في القرن الثامن، وكان احدهما عندما ماتت ابنة خاقان الخزر وهي في مخاضها، وكانت قد تزوجت والي ارمينية المسلم، فارتاب ملك الخزر من سبب الوفاة، وظنه محاولة متعمدة لقتلها ، فقام بهجوم على اطراف الدولة الاسلامية ؛ وفيما عدا ذلك فقد ساد السلم والاستقرار في العلاقات مع المسلمين والروم .

تقدم الفايكنج والروس

غير انه ظهر في القرن التاسع الميلادي خطر جديد انبعث من الفايكنج الذين يسمون في المصادر المعاصرة «الروس» . فقد تقدم هؤلاء الفايكنج من سكندنافية سالكين الانهار والبحار بالسفن، وساروا بـ تلين اتجه احدهما الى الغرب فغزا ايسلندة وايرلندة ونورماندي وباريس وشواطيء الاندلس وايطاليا ثم وصل الى القسطنطينية فدخلها ، وبذلك برزت اهمية الخزر في الصمود بوجه الفايكنج وحماية البيزنطيين والمسلمين من اخطار غزوهم .

اما الرتل الثاني من الفايكنج فقد تقدم من شمالي روسيا سالكا نهر الفولغا حتى وصل بحر قزوين؛ وسلك نهر الدينبر ايضا حتى وصل البحر «الاسود ؛ وقاده هذا التقدم الى الاصطدام بالبلغار والخزر لانه هدد املاكهم في بلاد يسكنها السلاف . وقد ظل هؤلاء «الروس» يغزون الاقاليم الجنوبية فترة من الزمن، ثم استقروا وتاثروا بالحضارة السلافية واصطبغوا بها .

وللوقوف بوجه التقدم الروسي تعاون الخزر والسلاف على بناء قلعة سركل في مصب الدون ، فضلا عن حصون اخرى شيدها الخزر لهذا الغرض . غير ان الروس استطاعوا تثبيت اقدامهم : ثم سيطروا على كييف وجعلوها مدينة زاهرة .

واستغل الروس في احدى الفترات انشغال الجيش البيزنطي في بعض الحوادث بعيدا عن العاصمه ، فقاموا بغزو القسطنطينة ونهب كافة القرى والاديرة حولها . وقد نبهت هذه الغزوة البيزنطيين الى خطر الروس فحاولوا التفاهم معهم ، واخذوا يتسخدمونهم في الاسطول وفي الجيش، وسمحوا لهم بالمتاجرة مع القسطنطينية بشروط خاصة . ثم تنصرت اولجا اميرة كييف ، واستقرت النصرانية في تلك الامارة بعدئذ، وبذلك توطدت العلاقة بين البيزنطيين والروس على حساب الخزر الذين اخذت احوالهم بالتدهور .

المجريون

ومن الشعوب ذات الصلة الوثيقة بدولة الخزر في تلك الازمنة هم المجريون وهم قبائل جاءت في الاصل من مناطق الاورال، وسكنوا بين الدون وكوبان ولهم لغة خاصة لا تشبه ممن يجاورهم الا لغة اصل فنلندة . وكانت علاقتهم طيبة مع الخزر ، فكانوا يجبون للخزر الضرائب من الشعوب المجاورة وخاصة من البلغار؛ ثم عين لهم خاقان الخزر ملكا منهم هو ارباد الذي يعتبر اول ملك هنغاري؛ وقد قاد هذا الملك المجريين واوطنهم هنغاريا حيث لا يزالون مقيمين فيها حتى اليوم . وقد انضم عدد من الخزريين الى المجريين فاثروا في تكوينهم العرقي .

سقوط الدولة

تقدم الروس

ادت هجرة القبائل المجرية نحو الغرب وتاسيس امارة كييف الى تطبيق الحصار على دولة الخزر من الغرب؛ ثم ظهر لهم خطر جديد هددهم من الشرق جاء من الروس الذين اخذوا يتقدمون للتجارة احيانا وللنهب احيانا اخرى، وقد وصف المسعودي احدى غزوات الاسطول الروسي لمدينة أمل سنة ٣٠٠ هـ حيث قال في كلامه عن الروس «وقد كان بعد الثلاثمائة (من الهجرة) ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب ، في كل مركب مائة نفس فدخلوا خليج ينطس المتصل ببحر الخزر ، وهناك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدون من يرد من ذلك البحر .. فلما وردت مراكب الروس الى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر في ان يجتازوا البلاد وينحدروا في نهره، فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر .. فاباحهم ذلك، فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء حتى وصلوا الى نهر الخزر وانحدروا فيه الى مدينة آمل .. فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر وطرحت سراياها الى الجبل والديلم وبلاد طبرستان وابسكون ، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة ونحو بلاد اذربيجان .. فسفكت الروس الدماء واستباحت النسوان والولدان ، وغنمت الاموال، وشنت الغارات واخربت واحرقت ؛ فضج من حول هذا البحر من الامم، لانهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه، وانما تختلف فيه مراكب التجار والصيد.. وكانت الروس تاوي عند رجوعها من غاراتها الى جزائر تقرب من النفاطة على اميال منها ، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم ، فاستعد الناس وركبوا في القوارب ومراكب التجار ، وساروا نحو تلك الجزائر، فمالت عليهم الروس، فقتل من المسلمين وغرق الوف ، واقام الروس شهورا كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لاحد ممن جاور هذا البحر من الامم اليهم والناس مهتابون لهم ، حذرون منهم ، لانه بحر عامر لمن حوله من الامم ، فلما غنموا وسئموا ما هم فيه ساروا الى فم نهر الخزر ومصبه .. ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم افة عظيمة، وعلم بشانهم اللارسية ومن في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر خلنا وهؤلاء القوم فقد اغاروا على بلاد اخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذراري ، فلم يمكن لملك منعهم وبعث الى الروس فاعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم ؛ وعسكروا وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء ، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وصافوا المسلمين ، وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة آمل وكان المسلمون من نحو خمسة عشر الفا بالخيل والعدد ، فاقام الحرب بينهم ثلاثة ايام ، ونصر الله المسلمين عليهم ، واخذهم السيف ، فمن قتيل وغريق ، ونجا منهم نحو خمسة الاف، وركبوا في المراكب الى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس ، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر، فمنهم من قتله اهل برطاس، ومنهم من وقع الى بلاد البرغر الى المسلمين فقتلوهم وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطيء نهر الخزر نحوا من ثلاثين الفا . ولم يكن للروس من تلك السنة عودة الى ما ذكرناه» .

وقد جدد الروس هجومهم بعد ثلاثين سنة فاحتلوا بردعة ، ثم تعاقبت بعد ذلك حملاتهم .

امارة كييف

اما امارة كييف فقد قامت بحملة نجحت في اخذ مدينة سركل ، فكان ذلك ايذانا بزوال دولة الخزر؛ وكان ملكهم فلاديمير قد اعتنق النصرانية الارثوذكسية بعد ان حاولت مختلف الاديان جلبه اليها . ومن الطريف ان نذكر انه عندما حاول اليهود اقناعه باعتناق اليهودية سالهم لماذا لم يقيموا دولة في فلسطين ؟ فاجابوا لان الله غضب على اجدادهم لما اقترفوه من آثام وشرور فشتتهم بين الناس ؛ فلما سمع فلاديمير جوابهم طردهم قائلا: كيف تستطيعون هداية الناس وانتم مشتتون قد بؤتم بغضب من الله. وقد حاولت الدولة البيزنطية الاعتماد على امارة كييف في حمايتها، غير انها اخطات التقدير ، لان امارة

كيف لم تدم طويلا ، بل سرعان ما انهارت امام تقدم القفجاق الاتراك الذين بسطوا سلطانهم على بلاد واسعة امتدت حتى هنغاريا ، وظلت مسيطرة من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر حيث اكتسحهم المغول • وكان موقف هؤلاء القفجاق معاديا للبيزنطيين • ومما تجدر الاشارة اليه ان فرعا آخر من الاتراك الغزية، وهم السلاجقة تقدموا في اسيا الصغرى وسحقوا الجيش البيزنطي واسروا امبراطوره في معركة ملاذكرد الشهيرة •

فترة مظلمة

لقد سيطرت على هذه الاقاليم خلال هذه الفترة عصور مظلمة لانعلم فيها عن شعوب تلك البلاد اية تفاصيل • والمصادر الوحيدة عن هذه الفترة هي المصادر العربية ، وهي بدورها مقتضبة وغير متعمقة في معلوماتها : فيقول ابن حوقل ان الروس دمروا كليا خزران وسمندر والاتل • غير ان المصادر الروسية لا تذكر حملة قام بها الروس انذاك، ويلاحظ ان ابن حوقل يفصل بين خزران والاتل ، علما بانها مدينة واحدة ، كما انه لا يذكر سركل • ثم انه يذكر ان الاتل كانت لا تزال في زمنه مركزا للتجار الروس ومن المحتمل ان الروس غزوا الاتل ففر اهلها ثم عادوا فبنوها • ويقول ابن مسكويه ان الخزر استعادوا الاتل بمساعدة المسلمين • اما المقدسي فلم يشر الى غزو الروس ويكتفي بالقول ان اهل الاتل ساروا نحو البحر، ثم عادوا الى مدينتهم بعد ان اعتنقوا الاسلام •

الخزر في اواخر العصور الوسطى

وقد ورد ذكر الخزر في المصادر المتاخرة، مما يدل على عدم اندثارهم! غير انه لم ترد معلومات عن قوتهم وتماسكهم مما يدل على مدى تضعضعهم وضعفهم ثم زوال دولتهم• غير ان زوال دولتهم لا يعني زوال اثارهم في اماكن وشعوب متعددة ، فيذكر ابن العبري ان تكك ابو سلجوق كان في الاصل قائدا في جيش خاقان الخزر ثم انفصل عنه فاسس الدولة السلجوقية • ويقول ابن العديم ان ابو سلجوق كان من اشراف الترك الخزر ويقول ابن حسول بان سلجوق كان في خدمة ملك الخزر ثم ترك تلك الخدمة • وكل هذه النصوص تظهر وجود علاقة بين الخزر وبين مؤسس الدولة السلجوقية • ويتردد من المصادر العربية ذكر المسلمين ومكانتهم في تلك المنطقة - كما اشارت الملاحم الادبية البولندية الى الخزر•

وفي القرن الثاني عشر الميلادي انتشرت بين الخزر نبوءة بظهور مسيح يخلص بيت المقدس • وقد نشر هذه النبوءة خزري يهودي اسمه شليمون ابن دوجي وعاونه في نشرها ابنه مناحيم وقد ادعى شليمون هذا انه ايليا وان ابنه هو المسيح المنتظر ! وكاتب في ذلك عددا من اليهود في مختلف الاقطار، وحاول ان يسيطر على بعض البلاد الا انه فشل في هذه السيطرة• وقد انتشرت دعوته في البلاد وظلت ذكراه قائمة امدا • ويروي ان النجمة السداسية التي تتخذها اسرائيل شعارا لها هي من ابداع شليمون هذا •

التشتت

لقد فقدت دولة الخزر في سنة ٩٦٥ امبراطوريتها ، ولكنها لم تفقد كيانها ، بل ظلت دولة صغيرة ذات حدود واضحة حتى القرن الثالث عشر حيث ازالها المغول نهائيا من الوجود• وقد ارسلت قبيل زوالها الى البلاد السلافية فروعا لنشر اليهودية ، فكونت بذلك اوسع واقوى منطقة لليهود في العالم الحديث! واخذ اليهود ينساحون الى مختلف الجهات تجارا ورحالين وقوما لا وطن لهم الا حيث يقيموا موقتا في محلات محصورة تسمى الجيتو ينشؤون فيها مدارسهم وعباداتهم وينتظرون مسيحا ينقذهم•

الهجرة الى المجر

ففي هنغاريا مثلا انضم عدد من الكاباريين الى المجريين وهاجروا الى هنغاريا • وقد بدات هذه الهجرات قبل تدمير دولة الخزر ، ثم استمرت بعد ذلك فلما انتصر سانت اصطيفان فقد اليهود بعض مكانتهم ولكنهم لم يفقدوا كيانهم • وقد صدر في المجر ما يسمى المرسوم الذهبي ، وهو يشبه الماجنا كارتا الانكليزية ، وحرم فيه اليهود من وظائف سك النقود وجمع الضرائب والسيطرة على المالح الملكية ، مما يدل على انهم كانوا يتمتعون بهذه الامتيازات قبل ذلك • ومن المعلوم ان ماليه الملك المضروبه كان يشرف عليها رجل اسمه تيكا وهو يهودي من اصل خزري لعب دورا خطيرا في السياسه وظل باقيا في منصبه مدة احد عشر سنه ورغم صدور المرسوم الذهبي ، ولم يعزل عن عمله الا بعد ما تدخل البابا واجبر الملك على ذلك • فذهب تيكا الى النمسا ولكنه عاد الى هنغاريه في عهد الملك بكلا الرابع ، وهو ابن الملك اندريه! وظل في عمله حتى قتله المغول عندما غزو هنغاريه •

غزو المغول واثره

ولما غزا المغول اوربا فرت كثير من الشعوب من وجهها ، ونجا بعضهم ومنهم الكومان الى هنغاريا •

ثم اجتاحت هذه البلاد في القرن المدن وتقتل البشر وتدمر المزارع ، الثالث عشر جيوش جنكيزخان تهدم وتلاها الموت الاسود (١٣٤٧) وهو وباء هائل اجتاح البلاد وقتل معظم السكان ، وفر كثير منهم تاركين البلاد خرابا ليس لها من يعمرها •

وهكذا هاجرت الشعوب، لان الهجرة هي السبيل الوحيد لبقائها في الحياة اذا ارادت ذلك ، فكان ممن هاجر هؤلاء الخزر فلحقوا بمن سبقهم من ابناء جلدتهم الذين استوطنوا في اوكرانيا وجنوب روسيا ، ومن مظاهر هذه الاسماء الخزرية لكثير من الاماكن في هذه المناطق وفي الكاربات وكذلك من المقاطعات الشرقية من النمسا • غير ان عددا منهم ظل في الكرج وفي القفقاس ولا يزال حتى اليوم في شرقي القفقاس عدد من اليهود يسمون انفسهم داغ جو فوتي اي يهود الجبال •

الهجرة الى بولندة

وفي سنة ٩٦٢م، وهي السنة التي تدمرت فيها مدينة سركل الخزرية ، كونت القبائل السلافيه حلفا بزعامة البولنديين ، وكان هذا الحلف نواة دولة بولندة! وقد لعب اليهود دورا ملحوظا في هذه الاحداث، ويروى ان المرشحين لعرش بولندة كان رجلا يهوديا اسمه ابراهام بروكوفنك ، وسواء كان هذا الخبر صحيحا ام لا فانه يدل على ان اليهود ، وهم هنا من اصل خزري، كانت لهم قوة وعدد ملحوظ في بولندة آنذاك ، وان البولنديين ارادوا الافادة من خبراتهم في الادارة والمالية •

غير ان اعدادا اخرى من اليهود اجبرت على الهجرة من بلاد الخزر واوطنت الاقاليم الغربية، ومن هؤلاء عدد من الاسرى الذين نقلوا الى لتوانيا ثم الى بولندة • ولعل منهم ايضا عدد من القرائين • ويذكر الرحالة الفرنسي دي لانوي ان عددا من الجاليات اليهودية كانوا يقطنون في ارجاء مختلفة من شمال بولندة ولتوانيا ويتكلمون اللهجة التركية مما قد يدل على ان اصولهم خزرية • ولا تزال هذه اللغة هي المستعملة في العبادات الدينية لليهود القرائين في عدد من المدن مثل تروكي وفلنا ولوعزك وهاليج •

امتيازاتهم في بولندة

اتجه البولنديون عند تاسيس دولتهم نحو الغرب ! ولما كانوا

متأخرين عن الاقاليم الغربية فقد عملوا على تشجيع الهجرة الى بلادهم ليستطيعوا مجارات الغرب وبذلك هاجر اليهم اقوام من الخزر والارمن وغيرهم . وفي سنة ١٢٦٤ اصدر الملك بوليسلاف مرسوما حدد فيه حقوق المهاجرين اليهود ، فاباح لهم الاحتفاظ بكنائسهم ومدارسهم ومحاكمهم، وبتملك الاراضي وممارسة التجارة واحتراف ما يريدونه من الحرف . ثم اباح لهم الملك ستيفان باتوري (١٢٧٥ــ٨٦) انشاء برلمان خاص بهم يجتمع مرتين في السنة وله حق فرض الضرائب على اليهود .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ارسل البابا كليمنت الرابع الى احد امراء بولندة يشكو فيه من كثرة المعابد اليهودية في مدن بولندة ، ومن ارتفاع بنائها وكثرة زخارفها وطغيانها في الفخامة على الكنائس المسيحية ؛ ثم اصدر امرا بمنع فيه اليهود من اقامة اكثر من كنيس واحد في كل مدينة: كل هذا حدث في الوقت الذي كانت فيه جيوش المغول تجتاح في غزوها سهوب روسيا ، مما يدل على ان معظم يهود بولندة كانوا من الخزر الفارين من وجه المغول، وانهم كانوا في وضع مالي جيد . ولعل عددهم لم يقل عن ربع مليون ، من المجموع الكلي ليهود اوربا الوسيطة البالغ مليونا في تقدير دائرة المعارف اليهودية . وهذا يدل على ان يهود الخزر كونوا نسبة عالية من يهود شرقي اوربا ، ومن الطبيعي ان معظمهم هاجر الى بولندة ولتوانيا ، والى هنغاريا والبلقان .

مكانة عالية

كانت لليهود مكانة متفوقة في بولندة وهنغاريا ، فكان منهم مدراء المال وجباة الضرائب والمسيطرون على احتكارات الملح . ويلاحظ ان النقود البولندية المسكوكة في هذا الزمن كانت عليها حروف عبرية . وقد امتد نفوذ اليهود الاقتصادي الى بلاط الامراء ايضا . وامتلك بعض اليهود مزارع واسعة . غير انهم من حيث العموم لم يقبلوا على الزراعة كثيرا ، لان النظام الاقطاعي يمنع هجرة الفلاحين ، كما ان مناخ بولندة يختلف عن مناخ بلاد الخزر ، هذا فضلا عن ان الزراعة لا تؤتي ارباحا كبيرة . وقد أدى هذا الى انصراف اليهود الى الصناعة والتجارة .

وكان يهود اوربا يعيشون في محلات خاصة محاطة باسوار تقفل ابوابها في الليل، ولم يكن لليهود تجاوز هذه المحلات التي اصبحت بسبب ذلك مزدحمة السكان وتتسم بالقذارة .

اما في بولندة فكان اليهود يسكنون في محلات مفتوحة يمارسون فيها اعمالهم في الصناعة والتجارة ، وقد احتكروا التجارة بالخشب والنقل بالعربات الذي ظل سائدا في بولندة حتى دخول السكك الحديدية اليها. واشتغل عدد من اليهود في ادارة الفنادق والخانات، وفي المطاحن وتجارة الفراء، ولا بد انهم جلبوا هذه الحرف معهم من بلاد الخزر ، لان المحلات المقفلة الغربية لا تفسح المجال لنمو مثل هذه الحرف .

ويلاحظ ان زخرفة معابد اليهود في بولندة يختلف عن زخرفة المعابد في غربي اوربا ، وان البسة اليهود البولنديين من القفطان الحريري الطويل. وكذلك اغطية رؤوسهم تشبه ما هو مستعمل عند الاقوام الساكنة في جنوب روسيا .

من أين جاؤوا

يتبين مما تقدم (اي ان الامة الخزرية اختفت من مسرح التاريخ (٢) انه ظهرت مراكز يهودية في المناطق المجاورة لمواطن الامة الخزرية، وخاصة تلك الواقعة في الجهات الشمالية الغربية (٣) ان عددا كبيرا منهم هاجر الى بولندة غير ان السؤال الذي يبرز هو : هل استقر في بولندة يهود هاجروا من غرب اوربا .

يهود اسبانيا

ان اقسم الجاليات اليهودية في اوربا الغربية ، ما عدا اسبانيا ، هي الجاليات التي كانت تقيم في فرنسا والراين: وقد استوطنت تلك الجاليات هذه الاقاليم بعد ان طردهم الرومان من فلسطين وشتتوهم ؛ ثم انتقل بعضهم الى انكلترة في زمن وليم الفاتح ليمارسوا نشاطهم الاقتصادي والمالي بعد ان تحدد نشاطهم التجاري الذي عرفوا به في العصور الوسطى، بسبب نمو الطبقة الوسطى في اقاليم غربي اوربا : فانصرف اليهود الى الامور المالية واعتمدوا على الطبقة الحاكمة . وقد بلغ عدد المهاجرين الى انكلترة في زمن وليم الفاتح الفين وخمسمائة .

الاضطهادات في اوربا

وقد تتابعت الاضطهادات على الجالية اليهودية في فرنسا ، وانتهت بان طردهم فيليب الجميل من فرنسا كليا . اما يهود فرنسا الحاليون فقد جاؤوها من اسبانيا اباز القرن السابع عشر .

اما يهود المانيا فلا نعلم اصولهم، غير ان الاشارات الى وجودهم تكثر في القرن الثالث عشر، اي عندما ازداد عدد المهاجرين اليهود من بلاد الخزر الى بولندة . وقد تردد ذكرهم في المدن الواقعة على الراين مثل متز وستوتجارت وكولون والالزاس؛ وقد ذكرهم الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي واشار الى قلة عددهم .

ولما بدأت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر ذبح عدد من اليهود في المدن الالمانية لانهم رفضوا التنصر والتعميد ، وبذلك لم يبق في المانيا الا عدد قليل من اليهود الذين اختفوا او التجأوا الى بعض امراء القلاع ثم عادوا بعد هدوء الاحوال الى مدنهم؛ ولكن لا يوجد اي دليل على انهم هاجروا الى بولندة او الى اوربا الشرقية .

ثم استعاد اليهود نشاطهم في القرن الثالث عشر وتردد ذكرهم في عدد من المناطق القريبة من الراين والبلاتينات وفريبورغ واولم وهيدلبرغ . غير انهم سرعان ما واجهتهم نكبات جديدة بدأت بطردهم كليا من بلاد فيليب الجميل ومصادرة املاكهم . فهاجروا الى بروفانس وبورغندي واكويتانيا. غير انه لا توجد اية اشارة الى هجرة احد من هؤلاء اليهود الى المانيا .

وجاءت النكبة الثانية من الطاعون الاسود الذي ظهر في التركستان ومنها انتشر غربا حتى اجتاح اوربا وافنى كثيرا من سكانها : ورافق انتشاره اشاعة عمت بان اليهود عملوا على نشره وانهم يسممون مياه الشرب ، فتعرض كثير منهم للقتل فضلا عمن مات بالطاعون . وبذلك خلت المانيا من اليهود الا القليلين الذين لجأوا الى قلاع الامراء؛ وكل هذا يدل على ان يهود بولندة لم يهاجروا من المانيا .

اما يهود انكلترة وفرنسا وهولندة في القرن السابع عشر فقد جاؤوا من اسبانيا .

فالقول بان يهود غرب اوربا هاجروا من اقليم الراين باعداد كبيرة الى بولندة وانهم اخترقوا اراضي المانيا المعادية لهم ، هو قول لا اساس له من الصحة ولا ينسجم مع الحجم الصغير ليهود الراين ورغبتهم في البقاء هناك. هذا فضلا عن عدم وجود اية اشارة في الكتب الى مثل هذه الهجرات شرقا .

تيارات متقاطعة

وعلى ضوء ما سبق يمكن ان يفهم المرء اتفاق المؤرخين البولنديين على ان معظم اليهود كانوا قديما في بلاد الخزر ؛ والحق ان المرء ليميل الى راي المؤرخ اليهودي كوشير بان كافة يهود شرق اوربا هم من اصل خزري خالص .

يهود النمسا

لقد كانت توجد في اواخر العصور الوسطى جاليات يهودية تقيم في فينا وبراغ والالب الكارنثي وايستريا ؛ وان بعض هذه الجاليات هاجرت الى ايطاليا وبولنده وهنغاريا . فمن اين جاءت هذه الجاليات في الاصل؟ قد يمكن الافتراض بان هذه الجاليات جاءت من ايطاليا التي قطنها اليهود منذ زمن الرومان غير انه لا يوجد ما يؤيد هذا الافتراض ، بل بالعكس توجد ادلة على ان بعض يهود الخزر هاجروا الى ايطاليا .

وقد تبنى بعض المؤرخين رواية اسطورية مفادها ان المقاطعات النمساوية في العصور السابقة لانتشار المسيحية كان يحكمها امراء يهود، ولم تذكر المصادر اصول هؤلاء اليهود ، غير ان اسمائهم التي ذكرتها الرواية تدل على ان اصولهم من منطقة الخزر . ومن المعلوم ان النمسا ظلت طوال النصف الاول من القرز العاشر تحت حكم الهنغاريين . وان المجريين وصلوا تلك البلاد مع قبائل الكبر الخزرية في اواخر القرن التاسع ، ولم يكن الهنغاريون قد اعتنقوا النصرانية ، اي انهم لم يعرفوا غير اليهودية دينا موحدا . وجدير بالذكر ان المؤرخ البيزنطي جون سيناموس ذكر وجود اليهود في الجيش المنغاري . وكل هذا يلقي ضوءا على اصول هذه الاسطورة .

دليل لغوي

ومما يناقض الادعاء بان يهود شرقي اوربا جاؤوا من بلاد الراين هو التركيب اللغوي لليديش ، وهي لهجة العوام اليهود ، وكانت شائعة انذاك ولا تزال مستعملة عند بعض الاقليات اليهودية في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . وهذه اللهجة هي خليط غريب من العبرية والالمانية الوسيطة والسلافونية وعناصر اخرى؛ وهي تكتب بالحروف العبرية . وقد بدأ الاهتمام بدراستها منذ سنة ١٩٢٤ حين نشر العالم اللغوي ميسنر دراسته عنها . ويتبين من هذه الدراسة انه ليس في اليديش ايه كلمات المانية مما يستعمل في منطقة الموزيل او فرانكفورت او المناطق المجاورة لفرنسا. والكلمات الالمانية التي وجدها ميسنر في اليديش كلها مما يستعمل في المانيا الشرقيه . ويلاحظ ان اليديش لغة عاميه ليس لكتابتها قواعد محددة ، فكل فرد يكتب كلماتها كما يريد دون التقيد باية قاعدة .

التاثر بالثقافة الالمانيه

ويلاحظ ان بولندة عملت في عهد ملكها كازمير العظيم على جلب الالمان الى بولندة لاعمارها ، واغدقت عليهم الامتيازات ، وامنت لهم الحرية والحقوق فنشطوا وانشأوا جامعة كركاو ، وساعدوا على تقدم بولندة وجعلها مركزا اقتصاديا وفكريا كبيرا، وانتشرت بين البولنديين الثقافة الالمانية وازداد تقديرهم لها .

وقد تأثر الخزر المهاجرون الى بولندة بدورهم . فاخذوا يقتبسون من من الثقافه الالمانيه وبتدروبها . ولم يقف بوجه هذه الثقافه الالمانيه الا الفرقه اليهوديه المعروفه باسم القرائين ، وكان اتباعها يميلون الى الزهد والى كره تعاليم علماء الدين اليهود : وجدير بالملاحظه ان القرائين في سنه ١٨٦٧ كان عددهم في روسيا (التي كانت تضم شرقي بولندة) يبلغ ١٢ر٨٩٤٢ ومنهم ٩ر٦٦٦ لغتهم التركية (وربما كان اصلهم خزري) ولم يكن يتكلم اليديش منهم يتجاوز ٣٨٣ . ويرجع عدم تكلم يهود بولندة اللغة التركية الى انهم تركوا استعمالها ، وبذلك فعلوا ما يفعله احفاد المهاجرين الى الولايات المتحدة، وهذه عادة مالوفة عند اليهود .

وكان بدء النهضة الاوربية ايذانا ببدء العصور المظلمة اليهودية ، فقد اصبحت تطبق بحقهم قوانين صارمة، ويفصلون عن الناس ، ويحرمون من الوظائف والحرف المحترمة، ويميزون بالملابس . وصاروا يعزلون في محلات مقفلة هي الجيتو .

اما في بولندة فقد تمتع اليهود ببعض الحرية حتى اواخر القرن السادس عشر حيث ادى تطبيق الجيتو وكثرة المهاجرين الى ازدحام مناطق سكناهم والى سوء احوالها الصحية ؛ وقد اضطرهم ذلك الى الهجرات الى هنغاريا وبوهيميا ورومانيا والمانيا حيث حلوا محل من زال بعد الطاعون الاسود .

يهود اوربا قفقاسيون وليسوا من فلسطين .

كل هذا يظهر ان معظم اليهود في اوربا ليسوا من فلسطين في الاصل بل انهم قفقاسيون في الاصل؛ وان مجرى الهجرة اليهودية لم يسر من البحر المتوسط الى فرنسا والمانيا ، ولكنه كان يسير دائما نحو الغرب مبتدئا بالقفقاس فاوكرانيا فبولنده فاوربا الوسطى . وهذا لا ينفي ان عددا من اليهود جاؤوا من الغرب؛ ولكن معناه ان اكثرية اليهود سارت في المسار الذي ذكرناه .

● خرافة العرق

السفردم

ينقسم اليهود في عصرنا الى قسمين رئيسين هما السفردم والاشكنازي . فاما السفردوم فهم متحدرون من اليهود الذين سكنوا منذ ازمنة قديمة في اسبانيا (وهي تسمى بالعبرية سفاراد) ثم طردوا منها في اواخر القرن الخامس عشر فانتقلوا الى البلاد المجاورة الواقعة على البحر المتوسط، وكذلك الى البلقان والى غرب اوربا . وهم يتكلمون اللهجة العبرية الاسبانية (اللادينو) ولهم طقوس دينية خاصة وكان عددهم في سنة ١٩٦٠ يبلغ نصف مليون .

الاشكناز

اما الاشكناز فهم الغالبية العظمى من اليهود ، اذ يبلغ تعدادهم حوالي احد عشر مليونا لقد ذكرت التوراة الاشكناز باعتبارهم قوما يسكنون في منطقة قرب جبل ارارات في ارمينية . ورد هذا التعبير في سفر التكوين (١٠ ، ٣) وفي سفر التواريخ (١ ، ٦) باعتباره احد اولاد جومر ، ابن يافث واخو طغرمة وابن اخ ماجوج الذي يدعي الخزر انه جدهم .

وذكر الاشكناز في سفر ارميا (٥١،٧) حيث دعاهم النبي ارميا الى تدمير بابل . وقد فسر سعديا الجاعون ، وهو من اكبر علماء اليهود في العراق في القرن العاشر الميلادي ، هذا النص بانه نبوءة عما سيحدث في عصره اي في القرن العاشر ، وان المقصود ببابل هو الخلافة الاسلامية ببغداد، والمقصود بالاشكناز هم الخزر او حلفاءهم . ويرى بولياك، وهو استاذ تاريخ اليهودية في العصور الوسيطة في الجامعة العبرية، ان بعض علماء يهود الخزر سمع تفسير سعديا فصار يطلق على اليهود الذين هاجروا الى بولنده اسم (الاشكناز) .

دم اليهود غير خالص: الادلة الانثربولوجية

لخص رافائيل باتاي في المقال الذي كتبه في دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٧٣) المناقشة الحادة القديمة عن مدى نقاوة الدم اليهودي بالفقرة التالية : «ان الادلة المستمدة من الانثربولوجيا الفيزيائية تظهر بانه لا يوجد جنس يهودي كما هو سائد عند الناس ، فمقاييس اجزاء الجسم المسجلة لليهود تظهر بانهم يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا في مختلف المظاهر البدنية بما في ذلك القامة، والوزن ، ولون البشرة، وشكل الجمجمة ، ومقاييس اعضاء الوجه،

واصناف الدم • والواقع ان دراسة اصناف الدم تظهر ان اليهود لا يختلفون عن الشعوب التي يقيمون بينها» •

وجاء في احدى الدراسات الناضجة التي نشرتها منظمة اليونيسكو عن مسالة العرق في العلم الحديث • وقد كتب هذه الدراسة الاستاذ جسوان كوماس:

« بالرغم من الراي السائد ، فان الشعب اليهودي خليط من اجناس متنوعة • والواقع ان هجرات اليهود المستمرة وعلاقاتهم الطوعية او القسرية مع انواع متعددة جدا من الامم والشعوب كانت من عوامل هذا التنوع وان ما يدعي شعب اسرائيل يمكن ان يظهر امثلة على صفات يتصف بها كل شعب ويكفي للتدليل على ذلك ان نقارن اليهودي من روتردام وما يتميز به من ضخامة بابن دينه من اهل سلانيك وما يتصف به من عيون غائرة ووجه عريض وجسم هزيل • وهكذا فان معلوماتنا تظهر ان اليهود عموما يمثلون درجة كبيرة من التباين والاختلاف تفوق ما يوجد بين الشعوب الاخرى» •

طول القامة

وذكر وليم ربلي في كتابه الكلاسيكي « عروق اوربا » الذي طبع سنة ١٩٠٠ •

«اليهود الاوربيون قامتهم اقصر من المعتاد ، وهم في الغالب Stanted مطلقا» وقد اورد على ذلك احصائيات كثيرة ، غير انه ذكر ان قصر القامة قد يكون مرجعه التاثر بعوامل محيطية » •

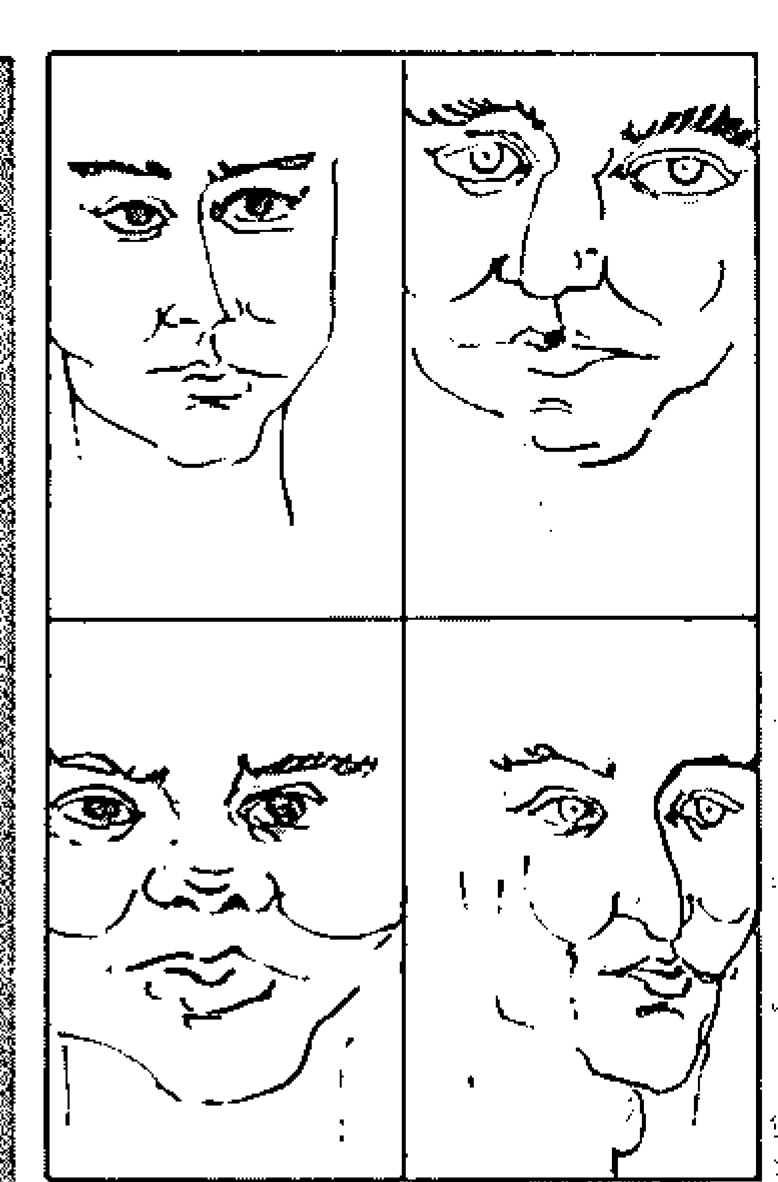
وفي سنة ١٩١١ نشر موريس فيشبرج كتابه «اليهود: دراسة في العرق والمحيط» وهو اول مسح انثروبولوجي من نوعه باللغة الانكليزية وقد كشف في هذا الكتاب حقيقة عجيبة وهي ان اطفال المهاجرين من اوربا الشرقية الى الولايات المتحدة قد يصبح معدل طولهم ١٦٧ر٩سم اي ان الطول يزيد حوالي انج ونصف في مدى جيل من الزمن • وهذه الظاهرة تنطبق على المهاجرين من الاجناس الاخرى، وهي ترجع الى تحسن التغذية والى عوامل محيطية اخرى •

ثم جمع فيشبرج احصائيات تقارن بين معدل طول اليهود وطول الشعوب الاخرى في بولندة، والنمسا، ورومانيا، وهنغاريا •• الخ؛ وكانت النتيجة عجيبة ايضا: لقد تبين منها ان طول قامة اليهود يتطابق مع طول قامة غيرهم ممن يعيشون معهم، فيكونون طوال القامة ، في البلاد التي اهلها طوال القامة والعكس بالعكس • ثم ان اطوال قامة الناس، سواء كانوا يهودا او غير يهود، تكون متباينة في افراد نفس الامة، بل وفي نفس المدينة،





اليهود المهاجرون الى الأرض المحتلة يمثلون درجة كبيرة من التباين والاختلاف تفوق ما يوجد بين الشعوب الأخرى.



من بين ٢٨٣٦ يهودي يسكنون نيويورك نسبة منهم قط أنوفهم مقعرة ر٥٧٠٪ مستقيمة و٢٠٫٠٪ فطس و٦ر٠٪ مستوية عريضة.

وذلك تبعا لرخاء تلك المنطقة؛ وهذا لا يعني عدم تاثير الوراثة في الطول، فاننا نؤكد في الحقيقة على العوامل الوراثية ولا نعطي العوامل المحيطية اهمية خاصة .

مقاييس الجمجمة

فلنعد الان الى مقاييس الجمجمة التي كان الانثروبولوجيون مغرمين بها؛ وهنا ايضا نجد ان مقاييس جماجم اليهود لا تختلف عن مقاييس غير اليهود الذين يعيشون معهم في نفس المنطقة؛ اي ان مقاييس جماجمهم متنوعة، فجماجم اليهود السفارديين مستطيلة ، وجماجم الاشكنازيين مستديرة .

والشائع ان اليهود ذوي شعور سوداء وعيون سوداء، غير ان كوماس قام بدراسة تبين منها ان ٤٠٪ من اليهود البولنديين شعرهم فاتح، وان ٥٤٪ من اطفال اليهود في النمسا ذوي عيون زرقاء . اما فيرشوف فقد تبين له من دراسة قام بها ان ٣٢٪ من اطفال اليهود لونهم اشقر .

تصنيف الدم

اما اصناف دمائهم فهي متباينة ايضا، وقد اجمل ذلك شابيرو في فصل كتبه في احدى الدراسات التي نشرها اليونيسكو بعنوان والشعب اليهودي: تاريخ بيولوجي حيث قال « ان المدى الواسع في التنويع بين السكان اليهود في خصائصهم الفيزيولوجية، وتنوع تكررات الـ Genes لمجموعات الدم فيهم يجعل اي تصنيف جنسي موحد لهم يبدو غير مضبوط .

ان القضية الاساسية كما يقول فيشبرج هي: هل ان اليهود عرق نقي الدم تكيف الى حد ما بتاثيرات محيطية ؟ ام انهم فرقة دينية تتكون من عناصر عرقية متنوعة جاءت من تنوع اصول المتهودين ومن الاختلاط بالزواج ابان هجراتهم الى مختلف ارجاء العالم ».« وقد اجاب فيشبرج عن ذلك بوضوح حيث قال:

اختلاط اليهود قديم

«فلنبدا بالادلة الدينية واخبارها اذ يبدو ان قبيلة اسرائيل كانت منذ بداية ظهورها مكونة من عناصر عرقية متنوعة .. فقد كانت في اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين آنذاك شعوب متعددة لكل منها سمات خاصة: فالعموريون شقر البشرة ، نحاف البدن ، طوال القامة وذوي رؤوس مستطيلة ؛ والحثيون سمر البشرة وهم اقرب شبها بالمغول، والكوشيون وهم من عرق زنجي، هذا فضلا عن شعوب اخرى. وقد تزاوج اليهود مع كل هذه الشعوب كما يتضح ذلك من نصوص التوراة .

اصول متباينة

لقد نصح انبياء اليهود شعبهم بعدم الزواج من نساء من دين اخر، غير ان اليهود ، وخاصة ملوكهم ، كانوا اول المخالفين لتعاليم انبيائهم فقد تزوج ابراهيم الخليل هاجر ، وهي امرأة مصرية؛ وتزوج يوسف من ابنة راهب مصري، وتزوج موسى امراة من مدين ؛ وكان شمشون اليهودي المشهور بقوته فلسطينيا . اما الملك داؤود فكانت امه مابية ، وزوجته جيشوريه . اما سليمان فكانت امه حثية ، وكان يفضل النساء الاجنبيات فقد تزوج ابنة فرعون ، ونساء مابيات ، وعموريات ، وادوميات ، وزيدونيات ، وحثيات ويتجلى من التوراة ايضا ان كثيرا من عامة اليهود قلدوا حكامهم في التزوج من الاجنبيات ولا يخفى ان التوراة تبيح الزواج من الاسرى وهكذا لم يشذ اليهود عن الشعوب الاخرى في عدم قصر الزواج على نساء من جنسهم .

يهود من شعوب اخرى

ثم ان عددا من مختلف الشعوب اعتنقوا اليهودية؛ نذكر منذلك فلاشا الحبشي، وكان نتج الصيني، ويوسف ذي نواس اليماني. وظل التهود يحدث حتى في العصر الروماني وبعد سقوط الدولة اليهودية. فقد اعتنق اليهودية في تلك الفترة افراد من حدياب واليونان وانطاكية. ويقول المؤرخ اليهودي رايناخ ان اليهودية في العصور الهلنستية والرومانية اتسمت بميزة لم تختص بهما في اي عصر اخر وهو انها اخذت تنتشر، لمدة قرنين او ثلاثة، بين الناس، وخاصة في مصر وقبرص وليبيا . ولا بد ان هذا رافقه اختلاط دم الاسرائيليين بدماء الشعوب الاخرى .

الجيتو وحصر الزواج

ان ظهور المسيحية وتطبيق نظام الجيتو اديا الى حصر اليهود، غير ان الجيتو لم يطبق بدقة الا في القرن السادس عشر . والواقع ان التزاوج بين اليهود وغيرهم ظل ساريا وكان سببا لاستياء رجال الدين النصارى ولاصدار المجالس الدينية مراسيم متعددة ، كالمراسيم التي اصدرها كل من مجلس طليطلة سنة ٥٨٩ ومجلس روما سنة ٧٤٣ ومجلس لاتيران سنة ١١٢٣ و ١١٣٩ وكذلك المرسوم الذي اصدره الملك لادسلاف الثاني الهنغاري في سنة ١٠٩٢ . والواقع ان الجيتو حصر الزيجات مع غير اليهود ولكنه لم يمنعها، حتى انه كان في المانيا بين سنة ٩٢١ و ١٩٢٥ اثنان واربعون زيجة مختلطة من بين كل مائة زيجة يهودية .

تنصر يهود اسبانيا

اما يهود اسبانيا (السفارديم) فمن المعلوم ان كثيرا منهم تنصر: فبعد مذابح سنتي ١٣٩١ و ١٤١١ تنصر اكثر من مائة الف؛ ولكن كثيرا منهم ظل يعتنق اليهودية سرا، فاحتفظوا بمناصبهم العليا وتزاوجوا مع غيرهم فلما صدرت قوانين طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) ومن البرتغال (سنة ١٤٩٧) زادت الشكوك في المتنصرين منهم ، واحرقت محاكم التفتيش عددا منهم، واضطر اخرون الى الهجرة الى الاقاليم الاخرى من البحر المتوسط ، والى هولندة ، وانكلترة ، وفرنسا حيث اعلنوا يهوديتهم في هذه البلاد .

التزاوج

وقد امتد هذا الاختلاط في التزاوج الى يهود فلسطين انفسهم، فقد روى لنا مثلا ان يهودا بن حزقيل عارض زواج ابنه من امراة لا تنحدر من نسل ابراهيم ، فقال له صديقه اولا: كيف تستطيع التحقق باننا انفسنا لسنا متحدرين من الوثنيين الذين افتضوا باكرات صهيون عند حصار اورشليم. ومن المعلوم ان غشيان نساء العدو كان يعتبر في التاريخ القديم حقا طبيعيا للجيوش الفاتحة . ويروي المؤرخ اليهودي جرايتز ان يهود المانيا تحدروا من نسل وحدة عسكرية المانية كانت تقاتل مع الجيش الروماني في فلسطين فاخذ افرادها فتيات يهوديات كان من نسلهن اقدم يهود المانيا .

ولم يقتصر التزاوج بين اليهود وغيرهم على المانيا الغربية، بل كان سائدا في اوربا الشرقية ايضا: فيقول فيشبرج:

«لقد كان الاختلاط الجنسي الناجم عن الحروب كثير الحدوث في البلاد السلافية حيث كان رجالها يعلمون ان اليهود يحاولون فداء اسراهم. فكانوا يعملون على الاكثار من اسر اليهود للحصول على الفدية، وكانوا ينكحون النساء الاسيرات».

هل لليهودي سحنة خاصة

يدعي البعض انهم يمكنهم تمييز اليهودي من اول نظرة ، فهل هذا صحيح؟ لقد قال ارنست رينان في سنة ١٨٨٣ : «لا يوجد لليهود شكل واحد، بل توجد لهم عدة اشكال: فلليهود اشكال متعددة، كما ان عددا ممن تتصورهم يهودا، هم ليسوا كذلك».

الانف

وقد ساد بين الناس ان ابرز ماتميز اليهود هو شكل انوفهم المحدبة التي تشبه منقار النسر! غير ان من الغريب ان فيشبرج فحص ٢٨٣٦ يهوديا من مدينة نيويورك، فوجد ان سبعهم فقط كان له مثل هذا الانف، وان ٥٧٪ منهم كانت انوفهم مستقيمة، و ٢٠٪ ذوي انوف فطس ، و٦٫٥٪ كانت انوفهم مستوية عريضة . وقد وجد عدد من الانثربولوجيين مثل هذه النتائج في بولندة واوكرانيا .

ويلاحظ ان الانوف المعقوفة كثيرة عند قبائل القفقاس وعند سكان اسيا الصغرى، وان لهنود امريكا انوف تشبه الانوف التي يزعم الناس انها من خصائص اليهود. اما البدو والعرب، وهم ممثلوا السامية النقية ليست لهم انوف معقوفة .

وما ذكرناه عن الانف ينطبق على بقية اجزاء الوجه التي يزعم بعض الناس انها تميز اليهود، في حين انهم لا يحتكرونها بل توجد عند امم اخرى ايضا .

صفات مكتسبة من المحيط

ان الصفات المكتسبة من الاوضاع الاجتماعية ومن العوامل المحيطية الاخرى يصعب جدا فصلها عن العوامل الوراثية: ولهذه الصفات المكتسبة تاثير كبير على السلوك والكلام والعادات : وان من اهم وسائل تمييز اليهودي هي ملاحظة هذه الصفات المكتسبة ، وملاحظة البسته وطرق قص شعره : غير ان هذه الالبسة اذا لبسها غير اليهودي فانه يبدو وكانه يهودي ، وهذا لايقتصر على اليهود وحدهم، بل ينطبق على معظم الشعوب الاخرى، وهو يتجلى بوضوح من مراقبة الخصائص العامة التي يتميز بها سكان الولايات المتحدة علما بان اصولهم العرقية متنوعة جدا . وجدير بنا ان نتذكر ان اليهود في العصور الحديثة عاشوا في معظم البلاد معزولين في محلات خاصة (الجيتو) فخضعوا الى محيط متشابه وتعرضوا الى تاثيرات متشابهة .

عزلة اليهود في الجيتو

ان اليهود منذ زمن التوراة حتى العصور التي طبق فيها الجيتو سادت عندهم العزلة، وانحصر زواجهم في داخل جماعتهم المعزولة . ولا ريب في ان هذا التزاوج الداخلي قد يؤدي الى الاحتفاظ ببعض الصفات الجيدة، كما هو الحال في تزاوج الخيول. غير انه كثيرا ما يسبب خطر جلب عناصر مضرة مجمدة او افساح المجال لزيادة تاثير هذه العناصر . ولعل هذه العزلة هي سبب ماعرفه الناس عن كثرة البلهاء في اليهود .

ومن تاثيرات العزلة ايضا التغييرات التي تحدث على العناصر الموروثة : فمن المعروف ان بعض الخصائص في الوراثة البيولوجية تتقرض في الشعوب المعزولة اما لعدم وجود من يحملها اطلاقا، او لقلة الذين يحملونها وعدم نجاحهم في نقلها الى الاجيال التالية، وهذا قد يؤدي الى تبدل كثير من الصفات الوراثية .

ثم ان اليهود لم يشتغلوا كثيرا بالزراعة ، ولم يكثروا سكنى الريف، بل قصروا نشاطهم على المدن فاصبحوا مكتضين فيها ، وقاسوا من الاخطار التي يولدها حصر انفسهم في الجيتو؛ وهذا ادى على حد قول شابيرو الى ان «الاوبئة الكاسحة التي اجتاحت البلاد في العصور الوسطى كان لابد ان تؤثر في اختيار اليهود اكثر من غيرهم، فقد افنت الضعفاء ، واكسبت الباقين منهم مناعة تفوق ما لغيرهم». ويعتقد شابيرو ان هذا هو سبب قلة النسل عند اليهود .

الرهـا

وقد رافقت المعيشة في الجيتو ضغوط معادية تراوحت بين الاحتقار البارد الى اعمال عنف تطبق تبعا لبرامج منظمة . ولا بد ان الحياة لعدة قرون في مثل هذه الظروف قد ادى الى بقاء اشدهم حضور بديهة واكثرهم مرونة وقابلية على البقاء . وهذه صفات يتميز بها اليهود الذين عاشوا في الجيتو . ولا يزال الجدل قائما حول ما اذا كانت هذه الصفات السيكولوجية تقوم على اسس وراثية تعمل بموجبها عملية الاختيار ، ام انها منقولة بالوراثة الاجتماعية خلال التكيف منذ الطفولة . فالمشهور مثلا ان اليهود معتدلون في شرب الخمور، وهذا يمكن تفسيره بانه من اثار الجيتو ؛ فان الذي يعيش في ظروفه لا بد له ان يضبط نفسه من تصرفاته اذا اراد الا يناله الاذى غير ان هذه العادة تزول عند زوال ظروف الجيتو . فهي مسالة بيولوجية وليست وراثة اجتماعية .

يقول ربلي «ان اليهودي من اصل عرقي مختلط ، ولكنه من جهة اخرى الوريث الشرعي لليهودية : فان اليهودية قد اثرت في كل جزء من تفاصيل حياته فلماذا لا تؤثر على جسمه وعلى جمال نسائه وعلى اختياراته في الزواج » .

غير ان ربلي لم يدرس اثر الجيتو، اما فيشبرج فقد درس هذا الاثر ووصل الى الراي الطريف التالي» يتميز يهود اوربا الشرقية بقوة البدن، اما بقية اليهود فالمعروف عنهم انهم نحاف الجسم قصار القامة. غير ان هذه الصفات اخذت اليوم بالتبدل، وصار كثير من يهود اوربا الغربية والولايات المتحدة يفخرون بانهم لا يشبهون اليهود . وعلى هذا فاننا نامل تبدلات كبيرة فيما يدعى «الطبقة اليهودية» ، وخاصة عند الناشئة الاسرائيلية .

⇧ عمان ١٩٧٠
⇩ لبنان ١٩٧٦

الصفحة
160